

الفصل السابع

فى الحب وأسبابه وما فعل بأهله ومن عنى به !

□ فى القلب منى نار !! :

قيل : جلس معاوية بن أبى سفيان فى مجلس كان له بدمشق ، وكان ذلك الموضع مُفْتَحَ الجوانب يدخل مِنْهُ النَّسِيمُ ، فبينما هو جَالِسٌ ينظر إلى بعض الجهات ، وكان يومًا شديد الحر لا نسيم فيه ، وكان وسط النهار وقد لَفَحَ الهجير^(١) إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه وهو يتلظى بالنار ، وهو يحجل فى مشيته حافيًا راجيًا ؛ فتأمله معاوية وقال لجلسائه : هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة فى مثل هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله يقصد أمير المؤمنين ، فقال : والله لئن كان قاصدى سائلاً لأعطيته ، أو مُستجيراً لأجبرته ، أو مَظْلُومًا لأُصْرِنه ! .

ياخادمُ قف بالباب فإن طلبنى هذا الأعرابى فلا تمنعه من الدخول على ، فخرج الغلام فوافى الأعرابى ، فقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ادخل ، فدخل وسلم على معاوية ، فقال له : ممن الرجل ؟ قال : من تميم . قال : ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتك مشتكيًا وبك مستجيرًا ، قال : ممن ؟ قال : من مروان بن الحكم عاملك ، ثم أنشد هذه الأبيات :

وياذا الندى والعلم والرُّشدِ والتَّيْلُ
فياغوئى لا تقطع رجائى من العَدْلِ
بلاى بشيء كان أيسره قَتْلُ
وجار ولم يعدل وغاصبنى أهلى
تأثت ولم أستكمل الرزق من أجلى !

مُعَاوِيَ ياذا الجُود والفضل والحلم
أتيتك لما ضاق فى الأرض مَذْهَبى
وجُد لى بإنصاف من الجائر الذى
سباني «سعدى» وانبرى لخصومتى
وهم بقتلى غير أن مَيِّتسى

(١) الهجير نصف النهار فى القيظ خاصة ، وقد لفحته النار أو السَّمُومُ لَفَحًا وَلَفَحَانًا : أصابت وجهه وأحرقته ، ويقال : لفحته السَّمُومُ : قابلت وجهه ، فهى لافحة ! .

فلما سمع معاوية إنشاده والنار تتوقد من فيه^(١)، قال : مهلاً يا أخا العرب ، اذكر قصتك ، وأفصح عن أمرك .

قال : يا أمير المؤمنين كانت لى زوجة وهى ابنة عمى ، وكنت لها مُجَبِّاً وبها كَلِفاً^(٢)، وكنت بها قرير العين طيب العيش ، وكانت لى صِرْمَةً^(٣) من الإبل ، وكنت أستعين بها على قيام حالى وكفاف أودى ، فأصابتنا سنة ذات قَحْطٍ شديد أذهب الحُفَّ والظِّلْفَ^(٤)، وبقيت لا أملك شيئاً ، فلما قلَّ ما بيدى وذهب مالى وتغير حالى بقيت مُهَانًا ثَقِيلاً على وجه الأرض قد أبعدنى من كان يشتهى القرب منى ، وازوَرَ^(٥) عَنّى من كان يرغِبُ فى زيارتى . فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال وشر المآل أخذها منى وسألنى الفراق وجحدنى وطردنى ، وأغلظ على ، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مستصرخاً وبه راجياً لينصرنى .

فأحضر أباهما وسأله عن حالى ، فقال : ما أعرفه قبل اليوم ! . فقلت : أصلح الله الأمير إن رأى أن يُحضَرها ويسألها عن قول أبيها فليُفعل .

فبعث إليها مروان وأحضرها مجلسه ، فلما وقفت بين يديه وقَعَتْ منه مَوْقَعُ الإعجاب !، فصار لى خصماً وعلى متكرراً ، فانتهرنى ، وأظهر لى الغضب ، وبعث بى إلى السجن ، فبقيت كأنما خررت^(٦) من السماء فى مكان سحيق !.

ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك ، وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابى ؟! فرغب أبوها فى البذل^(٧) وأجابه لذلك ، فلما كان من الغد بعث إلى وأخرجنى من السجن ، وأوقفت بين يديه ونظر إلى كالأسد الغضبان ، وقال : يا أعرابى طلق « سَعْدَى » ، قلت له : لا أقدر على هذا ، فسلط على جماعة من غلمانة ،

(١) من فيه : من فمه ومن خلال كلماته .

(٢) كَلِفاً : متعلقاً .

(٣) صِرْمَةً (بكسر الصاد) : القطعة من الإبل .

(٤) أهلك الحف والظلف : أى لم يبق الجمال والأبقار وغيرها بسبب عدم نزول المطر . ويقال :

أهلك الزرع والضرع .

(٥) ازوَرَ : مال عنى وابتعد .

(٦) أى سقطت من أعلى فى حفرة عميقة !.

(٧) فى المال المبدول .

فأخذوا يعذبوننى بأنواع العذاب ، فلم أجد بدءاً من ذلك ففعلت ، فأعادونى إلى السجن ، فمكثت فيه إلى أن انقضت عِدَّتْها ، فتزوجها ودخل بها ، وقد أتيتك راجياً ، وبك مستجيراً ، وإليك ملتجئاً ، ثم أنشد :

فى القلب منى نار والنار منى فى استعار
والجسم منى سقيم فيه الطبيب منى يحار
وفى فؤادى جفّر والجفّر فيه شراز
والعين تطل دمعاً فدفعها مزارار
وليس إلا برئى ثم الأمير انتصار

ثم اضطرب واصطكت لها^(١) ، وخر مغشياً عليه ، وأخذ يتلوى كالحية المقتولة ، فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده ، قال : تعدى فظلم مروان بن الحكم ، فى حدود الدين ، واجترأ على حُرْم المسلمين ثم قال : والله يَأْغرابى لقد أتيتنى بحديث لم أسمع بمثله قط ، ثم دعا بدواة وقرطاس^(٢) وكتب إلى مروان بن الحكم : لقد بلغنى أنك اعتديت على رعتك ، وانتهكت حرمة من حُرْم المسلمين ، وتعديت فى حدود الدين ، وينبغى لمن كان والياً أن يَعْضَّ بصره عن شهواته ، وَيُزْجِرَ نَفْسَه عن لَذَّاته ، ثم كتب إليه كلاماً اختصرته هنا يهدده به نظماً وهو هذا الشعر :

وَلَيْتَ وَيَحَكَ أَمْرًا لَسْتُ تُذَرِّكُهُ فاستغفر الله من فعل امرى زانى !
وقد أتانا الفتى المسكينُ مُتَّجِبًا يشكو إلينا ببثْ ثم أحزان
أَعْطَى الإلهَ يَمِينًا لَا أَكْفَرُهَا وأبرأ من دين وإيمان
إِنْ أَنْتَ خَالَفتى فيما كَبِثْ به لأجعلنك لحماً بين عُقبان
طَلَّقَ سَعَادًا وَعَجَّلَهَا مَجْهَزةً مع الكُمَيْتِ ومع نصر بن ذيان

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه ، واستدعى الكُمَيْتَ ونصر بن ذيان - وكان يستنهنهما فى قضاء الحوائج لأمانتهما - قال : فأخذهما وسارا حتى قدما المدينة ، فدخلوا على مروان بن الحكم ، فسلما إليه الكتاب ، ففضه وقرأه ، فارتعدت فرائصه^(٣) ، فطلقها فى الحال ، وبعث بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الخلق واصطكاكها يكمن نفسه ، ويصيه بإغماء .

(٢) الدواة للكتابة ، والقرطاس الورق الذى يكتب عليه .

(٣) الفرائص : جمع فريضة وهى لحمة بين الكتف والصدر وارتعابها : كناية عن الخوف .

كتاباً ، فقرأه معاوية فقال : لقد أحسن في الطاعة ، وأظن في حُسن الجارية^(١) ، فلما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلها في الحُسن والقد^(٢) والجمال ، فخطبها فوجدها أفصح النساء بعدوبة منطق ، فقال : عَلَيَّ بالأعرابي ! .

فأتى به وهو على غاية من سوء الحال ، فقال : يا أعرابي هل لك عنها من سَلوة وأعوضك ثلاث جوارٍ بكرٍ مع كل جارية ألف دينار ، وأقسِمُ^(٣) لك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويُعينك على صحبتهن ، فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات ، فقال له معاوية : ما بالك ؟ فقال : شر بال ! وأسوأ حال ! ، استجرتُ بِعَدْلِكَ من جَوْرِ ابن الحكم فبمن أستجيرُ من جَوْرِكَ ؟! ثم أنشد هذه الأبيات :

لا تَجْعَلْنِي - فَذَاكَ اللَّهُ مِنْ مَلِكٍ - كالمستجير من الرَّمضاء بالنار^(٤)
ازدُدْ سعادَ عَلَيَّ حَيْرَانٍ مَكْتَبٍ يُمَسَّى وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارٍ
أُطْلِقُ وَثَاقِي وَلَا تُبْخَلْ عَلَيَّ بِهَا فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنِّي غَيْرُ كَفَّارٍ
ثم قال : ياأمير المؤمنين ، لو أعطيتني ما حَوَّثَهُ الخِلافة ما أغمضته دون سعدى ، ثم أنشد هذا البيت :

أبَى القلبُ إِلَّا حُبَّ سَعْدَى وَبُغِضْتُ إِلَى نِسَاءٍ مَالَهُنَّ ذُنُوبُ
قال معاوية : ياأعرابي أنت مُقَرَّرُ أَتْلِكَ طَلَّقْتَهَا ، ومروانُ مُقَرَّرُ أَنَّهُ طَلَّقَهَا ، ونحن نخيرها ، فإن اختارت سواك زوجناها منه ، وإن اختارتك رجعنا بها إليك ، قال : افعَلْ فلا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَليِّ العَظِيمِ !! فقال لها معاوية : ما تقولين يا سَعْدَى ، أيهم أحب إليك : أمير المؤمنين في عِزِّهِ وشرفه وسلطانهِ وقصورهِ وما تصيرين عنده ، أو مروان بن الحكم في عِسْفِهِ وجَوْرِهِ ، أو هذا الأعرابي مع جوعهِ وفقره وسوء حالهِ ؟! فأنشدت هذين البيتين :

هذا وإن كان في جوع وإضرار أعزُّ عِندِي مِنْ قَوْمِي وَمِنْ جَارِي

(١) أطال في وصف حسنِها .

(٢) القَدُّ : القوام والقامة ، وكما نقول : «العود» .

(٣) أعطيت نصيباً مقسوماً من بيت مال المسلمين .

(٤) الرمضاء : رمال الصحراء وحجارتها الملتبة بتأثير حرارة الشمس . ويضرب مثلاً في الخُلَّتَيْنِ

من الإساءة تجمعان على الرجل .

وصاحب التاج أو مروان عامله وكل ذي ذرهم عندي ودينار
ثم قالت : والله يأمر المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لَعَدَاتِ
الأيام ، وإن لى معه صحبة قديمة لا تُنسى ، ومحبة لا تبلى ، وأنا أحق من
صبر معه على الضراء ، كما تنعمت معه فى السراء ، فتعجب معاوية من عقلها
ومروءتها ، وأمر لها بعشرة آلاف درهم ، ورَدَّهَا بعقد صحيح .

[الوفاء فى الحب]

وحدث محمد بن سهل ، قال : حدثنى محمد بن قيس ، قال : وجهنى
عامل المدينة إلى يزيد بن عبد الملك وهو إذ ذاك خليفة ، فلما خرجتُ عن
المدينة ليلة أو ليلتين أو أكثر ، وإذا أنا بامرأة جالسة على الطريق ، وإذا شابٌ
نائم ورأسه فى حجرها وهو يتلوى ورأسه تسقط فى حجرها ، وكلما سقطت
أعادتها مكانها ، فسلمتُ فردت على السلام والشاب مشغول بنفسه ، قال :
فسألتها عنه ، فقالت : يا عبد الله هل لك فى الأجر والمثوبة ؟! ، فقلت :
لا أبغى سواهما ، قالت : هذا ولدى وكانت له ابنة عم تريباً سويّاً وشغفتُ
به وشغف بها^(١) ، وعلم بذلك أبوها ، وعلم بها أهل المدينة ، فحجبها عنه ،
وكان يأتى الموضع والخباء فيبكى ، ثم خطبها من أبيها فأبى أن يُزوجها ، لأنَّ
نرى أن ذلك عيبٌ أن تُزوّج امرأة لرجل كان يحبها ، ثم خطبها رجل غيره ،
فزوجها أبوها منه منذ خمسة أيام ، وهو على ما ترى لا يأكل ولا يشرب
ولا يعقل ، فلو نزلت إليه وتحدثت معه ووعظته وسلَّيته ، فلعله يسكن إلى
حديثك ويتقوَّ بشيء من الطعام . قال محمد : فنزلتُ ودنوتُ منه ،
وتلطفْتُ به ، فرفع إلى طرفه ، وقال هذه الأبيات بصوتٍ حزين :

ما للحبيبة لا تعودُ ؟! أبخل بالحبيبة أم صدودُ ؟!
مرضتُ فعادنى أهل جيعاً فمالك لم تُرنى فيمن يعودُ ؟!
فقدتُك بينهم فبكيت شوقاً وفقدتُ الإلف يأسلمى شديداً !
فلو كنتُ المريضة كنتُ أسمى إليك وما يهْدُونى الوعيد

ثم سكن ، فنظرت المرأة إلى وجهه وصرخت ، وقالت : والله فاضت
نفسه ، قالتها والله ثلاث مرات ، فعشيتنى من ذلك هم وغم ، فلما رأت

(١) شَغَفَ بها وشغفتُ به : وصل الحب إلى شغاف قلبها ممّا .

العجوز ما حل بي عليه من الحزن ، قالت : يا ولدى هون عليك والله لقد استراح مما كان فيه ، وقدم على رب كريم ، فهل لك في استكمال الأجر ؟ قال : نعم . قالت : هذا الحى منك قريب فإن رأيت أن تمضى إليهم تنعيه لهم وتسألهم الحضور ليعينوني على مواراته^(١) فافعل ، قال محمد : فركبت وأتيت الحى ، فنعيتهم لهم وأخبرتهم بصورة أمره ، فبينما أنا أدور فى الحى وإذا أنا بأمرأة خرجت من خبائها تجر خمارين ناشرة شعرها ، فقالت لى : أيها الناعى لمن تنعى ؟ فقلت : فلان ، فقالت : بالله عليك مات ؟ قلت : نعم . قالت : هل سمعت منه شيئاً قبل موته ؟ قلت : نعم ، فأنشدتها الشعر ، فجعلت تبكى وتقول هذه الأبيات :

عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ يَا مُتَنَائِي مَعَاشِرُ كُلُّهُمْ وَاشِ حَسُودُ
أَشَاعُوا مَا عَلِمْتُ مِنَ الدَّوَاهِي وَعَابُونَا وَمَا فِيهِمْ رَشِيدُ
فَلَمَّا أَنْ ثَوَيْتَ الْيَوْمَ لَحْدًا فَكَلَّ النَّاسُ دَوْرَهُمْ لُحُودُ
فَلَا طَابَتْ لِي الدُّنْيَا حَيَاةً وَلَا سَحَتْ عَلَى الْأَرْضِ الرُّعُودُ

ثم خرجت مع القوم وهى تولول حتى انتهينا إلى الغلام ، فغسلناه وصلبناه عليه ودفناه ، فلما تفرقنا عن قبره جعلت تصرخ وتلطم فى صدرها ، فركبت ومضيت وهى على تلك الحالة ، فأتيت يزيد بن عبد الملك ، فناولته الكتاب ، فسألنى عن أمور الناس وما رأيته فى طريقى ، فأخبرته الخبر ، فقال : يا محمد امضى الساعة قبل أن تشتغل فى غير هذا حتى تمر بأهل الفتى وبنى عمه ، وتمضى بهم إلى عامل المدينة فتأمره أن يُثَبِّتَهُمْ فى شرف العطاء ، وإن كان أصاب الجارية ما أصابه فافعل بأهلها كما فعلت بأهله ، وارجع إلّى حتى تخبرنى بالخبر وتأخذ جواب الكتاب . قال محمد : فخرجت حتى انتهيت إلى قبر الغلام ، فوجدت بجانبه قبراً آخر ، فسألت عنه قالوا : هذا قبر الجارية لم تزل تصرخ وتلطم فى صدرها حتى فاضت نفسها ، ودفنت بجانبه ، فجمعت أهلها ومضيت بهم إلى عامل المدينة فأثبتتهم فى شرف العطاء ، وعدت فأخبرته الخبر فأجازنى على ذلك جائزة حسنة .

(١) مواراته : دفنه .

[جعفر بن سليمان وحكايته عن الحب]

قال حماد : وكنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة ، وإذا بشاب حسن الوجه أتى به ومعه جارية كأنها قضيب^(١) بان ، فقال صاحب الشرطة : أصلح الله الأمير ، وجدت هذا وهذه مجتمعين في خلوة وليست له بمحرّم . فقال جعفر للفتى : ما تقول ؟ قال : صدق والله لقد طال غرامى بها منذ سنين ، والله ما أمكنتى بها خلوة إلا في هذا الوقت ، ثم أنشد هذه الأبيات :

تميتُ من ربي أفورُ بقربها فلما تهيأ لى المنى غاله العُسر
والله ثم والله ما كان رية وما كان إلا اللفظ والضحك والبشر
فدونكم جلدى ولا تجلدوها فكم من حرامٍ كان من دونه ستر
قال حماد : فجعلت الجارية تبكى بكاءً شديداً ، فقال لها جعفر : وأنت لم تبكين ؟ قالت : والله شفقة لما حل بنا ، وكيف احتلت حتى خرجت ، وكيف بُلينا بهذه الرزية ، فقال لها : أتحيينه ؟ قالت : فلم غررت بنفسى ؟ قال لها جعفر : أنت حرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فأمر بها فأدخلت الدار وأحضر مولاها فاشتراها منه بمائتى دينار ، وأعتقها ثم زوجها للفتى ، ووهب له مائة دينار وكساهما وصرفهما عنه ، فقالت جواباً له :
لقد جُدت يابن الأكرمين بنعمة جمعت بها بين المُحِبِّين فى ستر
فلا زلت للإحسان كهفاً وباعياً وقد جَلَّ ما كان منك عن الشكر
قال : فضحك وأمر لها بجائزة على ما أنشدته وانصرفا .

□ جارية تبكى في طريق أبى بكر - رضى الله عنه - ! :

وروى أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - مر طائفاً بالمدينة في خلافته ، وإذا بجارية تبكى وتقول هذين البيتين :
وهويته من قبل قطع ثمامى ممتاساً مثل القضيب الناعم^(٢)
وكأن نورَ البدر يُشبه وجهه يمشى ويصعد فى ذؤابة هاشم^(٣)

(١) البان : شجر تشبه به الحسان فى الطول واللين واحده بانه . والقضيب : العود .
(٢) إمام : جمع تيمة ، وهى ما يعلق فى العنق لدفع العين فى الطفولة وقطع الإمام كناية عن الكبر وتخطى مرحلة الطفولة ومتماساً : متبخرأ .
(٣) الذؤابة : من كل شيء أعلاه . ويقال : فلان ذؤابة قومه : شريفهم والمقدم فيهم .

فقرع أبو بكر - رضى الله عنه - الباب ، فخرجت إليه جارية ، فقال لها : أحرّة أنت أم أمة ؟ قالت : بل أمة . قال : من هويت ؟ فبكت وقالت : سألتك إلا انصرفت عني ، قال : لا بد ، فقالت :

وأنا التي قرح الفراق بقلبي فبكت لحب محمد بن القاسم^(١) فسار أبو بكر - رضى الله عنه - إلى المسجد وبعث لمولاه فاشتراها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب - رضى الله عنه -!

□ من هذا الذى كان يعرف بالعاشق ؟ :

وقيل : إن عمر بن دويرة كان له أخ قد كلف بابنة عمه كَلَفًا^(٢) شديداً وكان عمه يكره ذلك ويأباه ، فشكا ذلك إلى خالد بن عبد الله القسرى وهو يومئذ عامل على العراق ، فذكر أنه يسىء جواره ، فسأله فى ذلك ، فحبسه خالد أياماً ثم أطلقه ، ثم زاد مابه من غلبة الشوق ، فحمّله على أن يتسوّر دارَ عمّه ليرى ابنته لمحبه فيها ، ففعل ذلك ورأوه فأمسكوا به وادعوا عليه السرقة ، وجاءوا به للجماعة شهدوا عليه بالسرقة وأنهم وجدوه فوق الدار ، وحملوه إلى خالد ، فسأله خالد فاعترف بالسرقة ليدفع المَظْنَةَ^(٣) عن ابنة عمه ، فأمر خالد بقطع يده فأخرج ، فكتب أخوه رقعة ، ودفعها لمن أوصلها إلى خالد وفيها هذه الأبيات :

أخالد قد أُعْطِيتَ فى الخلق رتبةً وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقرّ بما لم يَخْجِه المرءُ إنّه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
إذا مدت الغايث فى سبق الغلى فأنت ابن عبد الله أول سابق^(٤)
فمَنْ علينا واضطنّع عندنا يدًا فإن الفتى فى قوله غير صادق
قال : فأرسل خالد مولى يثق به ليكشف عن حقيقة الأمر ، فأتاه بالصّحيح من أمر الغلام ، فأحضر عمه وألزمه بتزويج ابنته ، فتعلل ، فقال له خالد : كم مبلغ رجائك من مهر ابنتك ؟ فقال : كذا وكذا ، فدفع له

(١) وفى رواية الخراطى التى نقلها عنه ابن القيم فى روضة الحبين :

وأنا التى لعب الغرام بقلبي

(٢) كَلَفَ بها : أحبها وأولع بها . (٣) التهمة وظن السوء بها .

(٤) ذكر ابن القيم هذه القصة فى روضة الحبين وروى البيت الثالث هكذا :

إذا بدت الرايات للسبق فى الغلى

خالد ما التمسه وأجرى عليه ما يكفيه ، ولزم باب خالد ، وكان يعرف بالعاشق .

[ومن الحب ما قتل !!]

وكان ممن بلغ الحب إلى ذهاب نفسه مع جلاله قدره وعلو شأنه يزيد ابن عبد الملك بن مروان ، وكان يحب « جاريته » : « حَبَابَة » و « سَلَامَة » ، وكان حبه لحبابة أشد ، وكان اشتراها بمائة ألف درهم واشترى سَلَامَة بعشرة آلاف دينار ، فلما اجتمعتا عنده أنشد :

وَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا التَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(١)

وكان يقيم الشهرين والثلاثة خاليًا بهما معتكفًا عليهما ، قد أهدر أمر الرعية ولا يراه أحد من رعيته ولا من خواصه ولا أخوه مسلمة ، فلما طال عليه ذلك ودخل عليه مسلمة أكثر لومه وعُتبه وعُتفه على ما كان عليه من الخلو والانقطاع .

وقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقِفُ بِيَابِكَ وَفُودُ النَّاسِ وَأَشْرَافُ الْعَرَبِ فَلَا تَأْذُنُ لَهُمْ وَلَا تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ قَرِيبُ عَهْدٍ لِعَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ طَيْبَ ذِكْرِهِ ، وَجَمِيلَ أَثَرِهِ ، وَحَسَنَ سِيرَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَرْجُو أَلَّا تَعَاتِبَنِي عَلَى هَذَا بَعْدَ يَوْمِنَا .

فلما خرج من عنده استلقى يزيد متفكرًا ، فدخلت عليه حَبَابَة فأعرض عنها ، فقالت : مَا بِأَلْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟! فَأَخْبَرَهَا بِمَقَالَةِ مُسْلِمَة ، فَقَالَتْ أُمْتَعْنِي مِنْكَ بِمَجْلِسٍ وَاحِدٍ ، وَافْعَلْ مَا شِئْتَ ، قَالَ : لَكَ صَبُوحُ غَدٍ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمَرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَلَمَّا أَخَذَ مِنْهُ الشَّرَابَ غَنَّتْهُ حَبَابَة وَقَالَتْ : إِذَا أَنْتَ لَمْ تُغَشِّقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جُلْمَدًا وَإِنِّي لِأَهْوَاهَا وَأَهْوَى لِقَاءِهَا كَمَا يَشْتَبَى الصَّادَى الزَّلَالَ الْمَبْرَدَا

(١) اختلف في قائله ؛ فمن قائل : إنه لمقر بن حمار البارق ، وقائل إنه : لخصرس الأسدي ، أو عبد ربه السلمي أو سليم به ثَمَامَة الحنفي ، وهناك من تردد في نسبه إلى مقر بن حمار أو الطرماح ابن حكيم ، أما الأصفهاني فقد نسب في محاضراته لأبي عينة المهلب . والتوى : الوجه الذي ينويه المسافر ، وهي مؤنثة .

وغنته سَلَامَةٌ وقالت :

كريم قريش حين ينسب والذي أَقَرَّتْ بالفضل كهلاً وأمرِداً
أهان تِلَادَ المالِ بالجُودِ إنه إمام الهدى يجرى على ما تعوداً^(١)
فقال يزيد : ويحك ياسَلَامَةُ مَنْ كَرِهُ قريش ؟ .

قالت : أنت ياأمير المؤمنين . قال : صدقت قاتل الله مَسْلَمَةَ ولعن رأيهُ ،
ثم قام يرقص ويدور ويقول : واطرباه ! والكريم طروب ، وكان يُسر بها إذا
رآها سروراً عظيماً عندما تجلس إليه ويقول : لا تطلعونى على أمر من الأمور ،
وما برح كذلك إلى أن تناولت حبة رمان فشرقت بها فماتت ، فجزع
عليها جزعاً شديداً ، ومكث ثلاثة أيام لا يدفنها حتى تنتن وجافت وهو يضمها
ويرشفها ، فكلمه جماعة من أهله وقالوا : اتق الله في نفسك ياأمير المؤمنين
وادفن هذه فإنها جيفة وإكرامها دفنها ، فأذن لهم في دفنها ، فلما كان بعد
خمسة أيام غلبه الشوق إليها والوحشة لها ، أمر بنيشها ، فكشف عنها التراب ،
فإذا هى قد تغيرت تغيراً قبيحاً وتقطعت ، فعوتب في ذلك ، فقال : ما رأيتها
قط أحسن منها في هذه الساعة ، فدخل عليه مسلمة وقال : والله لئن بلغ
أهل الشام خبرك ليقولون إنك خولطت^(٢) في عقلك وليخلفنك الناس وأنت
أعلم ، فأمر بدفنها ورد التراب عليها ، ولزم فراشه ، فما لبث بعدها سوى
سبعة أيام ودفن إلى جانبها^(٣).

[رَأْبُ الصَّدْعِ وَلَمْ الشَّمْلِ]

وذكر عن فتى من ذوى النعم أنه قعد به دهرُهُ ولح عليه الفقر ، وكانت
له جارية من أحسن الناس وجهًا ، وكانت أعظمهم خَلْقًا ، وكان يحبها محبة
عظيمة ، وكانت تحبه كذلك ، فلما ضاق عليه الحال واشتد عليه الأمر ،
قال لها : ماترين ما نحن فيه من الفاقة^(٤) ورقة الحال ، فإن رأيت أن أبيعك

(١) تِلَادَ المال : ما كان موروثاً منه ، والتالد : القديم ، بعكس الطريف .

(٢) أصابك لوثة ، وحل بك جنون .

(٣) وتجد في تاريخ الطبرى (٧/٢٣ - ٢٤) ذكراً لهذه القصة .

(٤) الفاقة الفقر ، ورقة الحال ، وقلة المال .

لبعض المتولين فأتسّع في ثمنك وأنت تتنعمين عنده فعلت ، فقالت : والله فراق
روحي من جسدي أهونُ عليّ من فراقك !

فاتفقا على ذلك وخرجا ، فعرضها لبعض التجار ، فقال له بعض
أصحابه : إن كان ولا بد فابعثها إلى عبد الله بن معمر - وكان عاملاً^(١) على
العراق - فبعثها ، فحملها إليه وأحضرها بين يديه ، فاستحسنها ووقعت منه
موقع الإعجاب ، ثم قال له : كم رجوت في ثمنها ؟ قال : أربعين ألف درهم ،
فدفع له ذلك وعشرة آلاف درهم نفقته وعشرة رعووس من الخيل المسومة ،
وقال له : أرضيت ؟ قال : أرضى الله الأمير ورضى عنه ، فأمر عبد الله بن
معمر بعض الجوارى أن تُدخل الجارية إلى داخل الدار وتُكرّم مَثَواها ،
فأمسكت الجارية بجانب الستر ، وقالت هذه الأبيات :

هنيئاً لك المال الذي قد أخذته فلم يبق في كفى غير التفكير
أقول لنفسي وهي في كُرْبَاتِها أَقْلَى فقد بان^(٢) الحبيب أو اكثرى
إذا لم يكن في الأمر عندك حيلة ولم تجدى بُدّاً من الصبر فاصبري
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا فصل إلا أن يشاء ابن معمر
قال عبد الله بن معمر : قد شئت يافتي ، خذها يافتي وخذ المال الذي صار
إليك ، فأخذ المال والجارية وانصرف ! .



(١) عاملاً : واليا من قبل الخليفة ، وهو وأمثاله عمال الخليفة على الأمصار والبلاد والعباد .

(٢) بان الحبيب : بعد ، وافترق ، وراح وتركها .